الباب الخامس

مراحل النمو عند الإنسان

تمهيد :

لا تبدأ حياة الطفل منذ الولادة ، ولكنها تبدأ — من الناحية البيولوجية — من ساعة الحمل ، ويتأثر نمو الجنين بالحالة التى تكون عليها الأم أثناء هذا الحمل .

وعند ما يولد الجنين ، يصبح فى عالم مختلف تمام الاختلاف عن العالم الذى كان يعيش فيه ، وتنشط حواسه ، وأجهزته ، وأعضاؤه ، لأداء الوظائف الحيوية الضرورية لبقائه ، وتبدأ عملية التفاعل بينه وبين البيئة الجديدة التى يعيش فيها . فهو — إذن — باعتباره كائناً حياً ، فى نشاط دائم .

ولا يمكن أن ينتقل فجأة من حالة الطفولة الضعيفة ، العاجزة ، الجاهلة ، إلى حالة الرجولة القوية ، الخبيرة النامية ، جسمياً ، وعقلياً . وإذن ، فالطفل — منذ الولادة — يستمر فى النمو ، والتغير الجسمى ، والعقلى ، والاجتماعى ، والوجدانى . ونحن نلاحظ هذا النمو فى جسمه ، وفى سلوكه . وهو نمو أساسه قواه الفطرية الموروثة ، والمؤثرات الخارجية المحيطة به فى بيئته .

والطفل البشرى أضعف أنواع الأطفال ، إذا قورن بغيره ، من حيث قدرته على الاعتماد على نفسه ، على الرغم من طول مدة حمله ، ألم تر إلى الكتكوت ينقر بمنقاره بعد خروجه من البيضة باحثاً عن غذائه ؟ وإلى الحمل يقفز ويجرى بعد أيام من ولادته ؟ ، وإلى العصفور الصغير يطير مستقلا عن أمه ، معتمداً على نفسه بعد نحو أسبوعين من فقس البيضة ؟

ولما كان الطفل البشرى أضعف أنواع الأطفال ، وأكثرها اعتماداً على غيره ، كان من الضرورى قيام الكبار برعايته ، وحمايته ، والإشراف على طعامه ، وشرابه ، ونومه ، وتربيته . . . وإلا . . . كان عرضة للهلاك ، ولا سيما فى السنتين الأوليين .

ومدة الطفولة البشرية أطول من طفولة أى حيوان ، وذلك لأن الطفل البشرى

— كما قلنا — أعجزها عند الولادة ؛ ولأن مستوى الحياة التى يحياها — عندما يصل إلى مرحلة الاستقلال ، والاعتماد على نفسه — أرقى مستويات الحياة عند جميع الكائنات الحية . فنظام معيشته ، وسيطرته على البيئة الطبيعية ، وتسخيره للقوى المختلفة المحيطة به ، وتعقيد حياته ، وما يحتاج إليه هذا التعقيد عن علم وخبرة ، ومهارة ، وقدرات عقلية ، وتخصص ، كل هذا يحتاج إلى زمن طويل للتعلم والنمو . وهذا هو السبب فى طول مدة الطفولة البشرية ، وهو السبب — أيضاً — فى أن غريزة الوالدية عند الإنسان أرقى منها عند الحيوان ، وأكثر مرونة .

ولما كان الطفل البشرى يحتاج لعناية أكبر ، ولمدة من الطفولة أطول ، كان عدد توالد الإنسان ، أقل منه عند الحيوان ، حتى يتمكن الوالد من أداء واجبه نحو صغاره .

وكلما كان المجتمع أرقى فى سلم الحضارة والثقافة ، كانت الحاجة أشد إلى إطالة مدة الطفولة — أى المدة التى يعتمد فيها الإنسان على غيره — ومدة التعلم . ولذلك نلاحظ أن سن ترك المدرسة الإلزامية فى الأمم الراقية ، أعلى منها عند الأمم الأقل رقياً ، وأنه كلما كانت المهنة التى سيزاولها الفرد أصعب وأحوج إلى التخصص ، كانت المدة التى يحتاجها لتعلم هذه المهنة أطول .

وكما قلنا ، ينمو الطفل فى رعاية والديه ، أو غيرهما ، ممن يشرفون عليه ؛ فهو ينمو فى بيئة ، وينمو تحت إشراف غيره ، ولابد من أن يكون هذا الإشراف سليماً من الناحية العلمية ، وأن تكون البيئة التى يعيش فيها مناسبة له ، حتى يكون نموه صحيحاً ، ولا يمكن توجيه الطفل فى نموه الجسمى والعقلى والخلقى والوجدانى ، إلا إذا عرفنا الخصائص المختلفة لكل من هذه النواحى فى أثناء مراحل نموه المختلفة . فمعرفة هذه الخصائص معرفة علمية ، تساعدنا نحن الآباء والمدرسين على توجيه التربية التوجيه الصالح ، سواء أكان هذا فى المنزل أم فى الحضانة ، أم فى الروضة ، أم فى المدارس التالية لها . ونحن نعلم أن الطفل قد ورث عن أبويه ، وعن نوعه البشرى ؛ قوى ، وغرائز ، وميولا ، وخصائص جسمية ، وعقلية . ونتيجة هذه المعرفة ، أننا مقيدون فى تربيتنا للصغار بما ورثوه من هذه القوى والميول . وأن وظيفة التربية هى تنميتها فى الاتجاه الصحيح ، تنمية تصل بها إلى أقصى كمال ممكن . نعم إن هذه القوى والخصائص تختلف من فرد لفرد ، بحسب الوراثة ، ولكنها — مع ذلك — ذات طابع مشترك ،

يندرج تحته أكبر عدد ممكن من الأطفال الذين ندرسهم ، أو نلاحظهم ، فى أية مرحلة من مراحل النمو ، مما يبرر القول بأن هذه الخصائص شائعة أو شاملة للأطفال فى مرحلة خاصة من مراحل نموهم .

وليس النمو الجسمى للطفل نتيجة لإضافة شىء خارجى عليه ، ولكنه نتيجة نمو داخلى ، تدريجى ، يكون سريعاً أحياناً ، وبطيئاً أحياناً أخرى . وهو نمو غير متناسب ، ولا متناسق ، فى جميع أجزاء الجسم ، أى أن نمو الأعضاء لا يكون بنسبة واحدة .

وكذلك الحال فى النمو العقلى ، فهو ليس ظهوراً لبعض الملكات ، أو القدرات التى لم تكن من قبل ، ظهوراً مفاجئاً ، ولكنه تدريجى . فكل العمليات العقلية تقريباً ، يزاولها العقل من الطفولة المبكرة ، وما بعدها من مراحل . وكل أنواع القدرات العقلية له أثر فى سلوك الطفل من سنواته الأولى ، ولكن بدرجات مختلفة ، ولذلك ينشأ الخطأ من افتراض مراحل محددة تحديداً دقيقاً ، تتميز كل واحدة منها عن الأخرى ، تميزاً واضحاً ، على حين أن النمو العقلى أمر تدريجى مستمر ومتصل ، إلى سن خاصة ، هى السادسة عشرة على الأرجح . نعم إن بعض الغرائز لا يظهر فى السنوات الأولى ، ولكنها تظهر متأخرة ، كالغريزة الجنسية ، التى لا تبدأ وظيفتها قبل سن الثامنة — كما يقول مكدوجال ، وحتى فى هذه السن تكون ضعيفة ، وغامضة [1] فى مظاهرها ، غير أن فرويد يرى أنها تظهر فى السنوات الأولى ، وذلك فى عبث الأطفال بأعضاء التناسل ، وتمتعهم بهذا العبث . وكذلك غريزة حب الاجتماع ، لا تظهر إلا فى السنة الثانية .

ويمكن القول إن هذا التطور فى حياة الفرد هو عبارة عن تغير جسمى وعقلى يبدو فى نمو بعض الأعضاء والقوى ، وفى ظهور بعض القوى التى لم تكن عند الفرد من قبل ، أو كانت فى صورة ضعيفة غامضة . ويجب أن نفهم أن الفرد وحدة جسمية عقلية ، body mind ، وأن نموه الجسمى والعقلى مرتبط أحدهما بالآخر ، وأن التفرقة بين الجسم والعقل تجاوز فى التعبير والشرح ؛ وهو ضرورة لفهم مظاهر النمو ، بحسب ما تبدو لنا .

---

(١) Social Psychology, Supplementary Chapters, by W. McDougall.

ونحن المربين ، علينا أن نعرف سيكولوجية الطفل فى مراحل نموه المختلفة ، وخصائص نموه الجسمى ، حتى نتخذ من أساليب التربية ما يلائم هذه السيكولوجية ، والخصائص . وقد ظلت سيكولوجية الطفل مهملة حتى أواخر القرن الثامن عشر ، وكان الرأى السائد أن عقلية الطفل تختلف عن عقلية الكبير من حيث الكم ، لا من حيث النوع . وكان الفضل لروسو ، وبستالوتزى ، وفروبل ، فى نقل اهتمام المدرس من المادة المدروسة[1] إلى التلميذ . وسنحاول — قبل التحدث عن مراحل النمو — أن نذكر أهم الفروق بين الطفل والراشد .

الفروق بين الطفل والراشد

إن الذى يلاحظ سلوك الطفل فى سنواته الأولى ، وطريقة تفكيره التى تبدو فى مظاهر مختلفة : كاللغة ، واللعب ، وعلاقته بغيره ، ويلاحظ سلوك الراشد — يجد بينهما فروقاً ، ولاسيما إذا لاحظنا الطفل فى عهد الطفولة المبكرة ، والراشد فى سن البلوغ .

ومن هذه الفروق الفرق العقلى ، فقد أثبتت مقاييس الذكاء أن ذكاء الطفل ينمو — أو بعبارة أصح يتفتح عقله — بالتدريج ، كلما كبرت سنه ، وعلى هذا فنوع الذكاء عند الكبير ، يختلف عنه عند الصغير .

والفرق الثانى ، هو أن سلوك الصغير خاضع لغرائزه ، وميوله الفطرية ، ولم تهذبه بعد التجارب ، أو البيئة الاجتماعية ، فغرائزه تدفع به إلى نوع من السلوك ، يغيره ، ويكيفه بالتدريج ، وفقاً لقوانين[2] الخلق وسلوكه وهو فى الطفولة خاضع للمرحلة الأولى الفطرية ، من مراحل السلوك الخلقى .

والفرق الثالث ، شعور الطفل باعتماده على غيره ، وحاجته إلى حماية هذا الغير ، وجلب الطمأنينة إليه من الناحية المادية ، والمعنوية . فهو فى حاجة إلى الغذاء ، والراحة الجسمية ، التى يتلقاها من الكبار . كما يحتاج لعطفهم ، وحبهم ، وإرشادهم . وهذه الحاجة تقل بالتدريج ، وتأخذ صوراً أخرى بنمو الطفل ، حتى يصل إلى سن الاعتماد على النفس .

وفرق رابع ، هو انغماس الطفل فى الخيال ، فهو يعيش فى عالم خيالى

---

(١) انظر ص ٣٥ — ٣٦ من كتاب Psychology & Practical Life, by Collins & Drever

(٢) انظر ص ٤٥ من كتاب Psychology & Practical Life, by Collins & Drever.

يقوم فيه بدور البطولة ، وهو يجد فى هذا العالم تعويضاً عن الواقع الحقيقى القاسى ، وكلما كبرت سنه ، وزادت تجاربه ، اختلط الواقع بتفكيره ، وأدرك الحدود الفارقة بينه وبين الخيال ، وصار فى سن الرشد أكثر خضوعاً فى سلوكه وميوله ، لقيود الواقع وظروفه .

وفرق خامس ، وهو فرق مهم ، وأعنى به النضوج الجنسى . وقد كان الرأى السائد قبل فرويد هو أنه ليس للطفل أى ميل ، أو نشاط جنسى ؛ غير أن علماء التحليل النفسى يقررون الآن أن حياة الطفل مليئة بالنشاط الجنسى ، وإن كانت مظاهر هذا النشاط الجسمية ، والعقلية ، تختلف عنده ، عنها عند الراشد . فهى عند الطفل تتجه أولا نحو تمتعه بقيام بعض أعضاء الجسم بوظائفها ، كالتبول ، وكلعب الطفل بعضوه الجنسى ، ومص الثدى ، أو الإصبع ، أما إشباع الغريزة الجنسية عند الراشد ، فله صور أخرى[١] .

مراحل النمو

للعلماء مذاهب[٢] مختلفة فى أساس تقسيم النمو ، فمن ناحية النمو الجسمى ، يلاحظ البروفسور H.A. Harris ، أن الطفل يمر فى ثلاث وثبات ، تتبع كل واحدة منها فترة تثبيت ، وذلك قبل الوصول إلى سن الرجولة (العشرين تقريباً) فالوثبة الأولى تتميز بالنمو السريع ، وذلك فى السنة الأولى من حياة الطفل وتتبع هذه الوثبة فترة تثبيت ، يكون فيها النمو بطيئاً ، وهى فترة تمتد من الثانية إلى الخامسة ، والوثبة الثانية تشمل الفترة من الخامسة إلى السابعة ، وتليها فترة التثبيت من السابعة إلى الحادية عشرة أو الثانية عشرة وذلك باختلاف الجنس والأفراد . والوثبة الثالثة تبدأ من الثانية عشرة ، أى أول المراهقة ، وتنتهى حوالى السادسة عشرة ، وتليها فترة تثبيت ، ونمو بطىء ، تستمر إلى العشرين . والرسم البيانى التالى ، يوضح هذه الفترات عند كل من الجنسين : الذكر ، والأنثى ، وكذلك مقدار التغير والنمو فى الطول والوزن .

---

(١) P. 141 Ground work of Educational Psychology, by Ross.

(٢) P. 35-36, Psychology and Practical life by Collins & Drever.

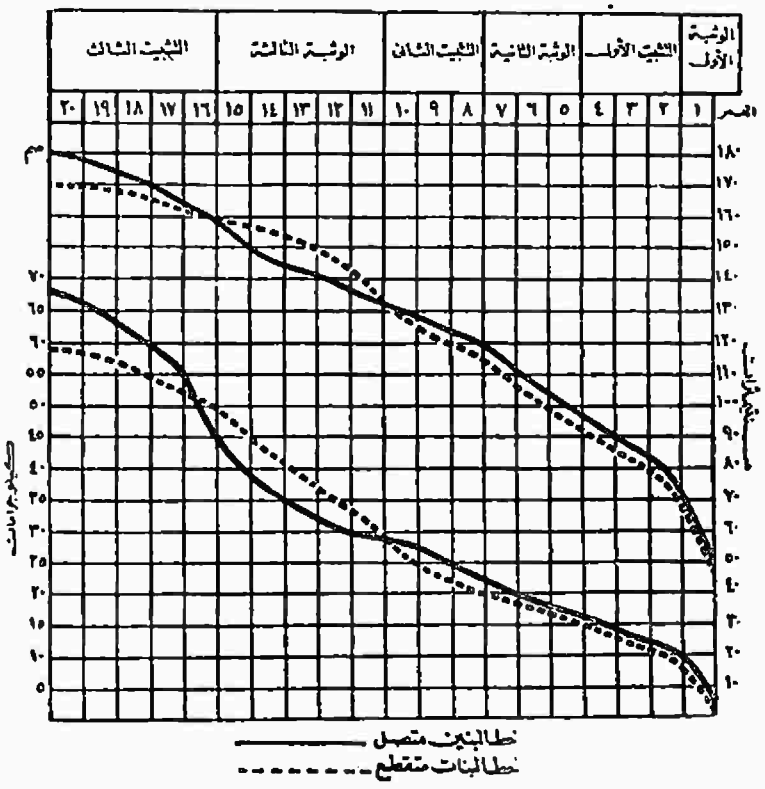

وهذا الرسم البيانى مقتبس من تقرير أصدره مجلس المعارف البريطانى باسم The Primary School

ويقرر بعض العلماء[١] أن النمو الجسمى والعقلى ، يحدث كل منهما بالتبادل ، ويتبين هذا من مظاهرهما فى حياة الفرد ، وعلى هذا يمكن تقسيم النمو إلى ما يأتى :

١ — المرحلة التى تشمل الـ ١٨ شهراً الأولى ، وفيها تظهر الوظائف الحيوية الضرورية للفرد وتقوى ، كالبصر ، والسمع ، والمضغ ، والمشى ، وبدء الكلام.

(١) P. 37 Psychology and Practical Life, Collins & Drever.

وقد بنى المؤلفان هذا التقسيم على قوانين وضعها تيومان الألمانى فى كتابه المسمى Vorlesungen والذى اقتبس منه رسك ، فى كتابه « التربية التجريبية » ، وها هى ذى القوانين :

١ — إن نمو الفرد خاضع منذ أول حياته لقواه الوراثية ، واستعداداته.

٢ — كلما كانت الوظيفة ضرورية لحياة الفرد ، كان نموها مبكراً .

٣ — إن نمو كل من الجسم والعقل ، لا يسير على وتيرة واحدة ، ولكن يتراوح بين فترات ، تختلف سرعة و بطئاً .

٢ ــ مرحلة نمو عقلى من سن ١٨ شهراً ، إلى ٤ سنوات .
٣ ــ مرحلة نمو جسمى من ٤ ــ ٧ سنوات.
٤ ــ مرحلة نموعقلى من ٧ ــ ١١ سنة .
٥ ــ مرحلة نمو جسمى من ١١ ــ ١٤ سنة .
٦ ــ مرحلة نمو عقلى من ١٤ ــ ١٧ سنة .

وهناك أسس أخرى مختلفة ، اتخذها العلماء لتقسيم مراحل النمو ، لا حاجة لذكرها هنا[١] وسنتبع فى هذا الباب تقسيماً شائعاً[٢] ، وهو :

١ ــ الطفولة المبكرة Infancy من الولادة إلى الخامسة .
٢ ــ الطفولة المتأخرة childhood من الخامسة إلى الثانية عشرة تقريباً .
٣ ــ الشباب Youth ويشمل المراهقة والبلوغ Puberty and Adolescence وتمتد هذه المرحلة من أول المراهقة (١١ عند البنات ، ١٢ ، و١٣ عند البنين) إلى سن العشرين ، أو الحادية والعشرين .

وها نحن أولاء نشرح خصائص كل مرحلة .

الطفولة المبكرة

من الولادة إلى الخامسة

تسمى هذه المرحلة بمرحلة ما قبل المدرسة ، وأغلب الأطفال يمضون هذه المرحلة فى المنزل ، فى رعاية الأسرة ، وإن كانت مدرسة الحضانة ، والأطفال ، والرياض تشارك الأسرة أحياناً فى هذه المرحلة .

ويخص علماء النفس والطب السنتين الأوليين من حياة الطفل بالعناية ، لما يحدث فيهما من نمو جسمى ، وعقلى ، ووجدانى ، يعتبر الأساس لكل ما يلى ذلك من نمو .

فمن حيث النمو الجسمى ، نجد الطفل فى السنة الأولى ، ينمو إلى ثلاثة أمثال وزنه عند الولادة ، فقد يصل إلى ٢٢ رطلا ، بعد أن كان سبعة أرطال عند الولادة . وينمو وزن الدماغ فى السنتين الأوليين ، نمواً لا يعادله أى نمو

---

(١) انظر ص ١٣٩ من كتاب « أسس الصحة النفسية » للدكتور القوصى « الطبعة الأولى »

(٢) Some Problems of Adolescence, by Ernest Jones, "Brit. Journ. Psych. vol. XIII, 1922-23".

فى حياة الطفل فى نفس المدة . ويمكن القول ان النمو العام لجسم الطفل فى السنة الأولى ، يفوق نموه فى أية سنة أخرى فى حياته .

وفى السنتين الأوليين يعرض الطفل لكثير من الأمراض نتيجة لهذا النمو السريع ، أو سوء التغذية أو العدوى . ولذلك تكثر وفيات الطفولة فى مرحلة الطفولة المبكرة بصفة عامة . ومن هذه الأمراض : السعال الديكى ، الحصبة ، الكساح ، أمراض الجلد والعيون والجهاز الهضمى . مما يدل على ضرورة العناية بالأطفال فى هذه المرحلة .

وتترك هذه الأمراض بعد زوالها آثاراً تبقى مع الصبى طول حياته . وتعزى هذه الأمراض إلى سوء حالة الأسرة المالية والثقافية وإلى جهل الأم . ولذلك كانت عناية المحاضن ورياض الأطفال الصحية ، ذات أثر فى نمو الأطفال الجسمى ، وحمايتهم من كثير من هذه الأمراض .

والطفل عندما يولد تربطه بالعالم الخارجى حواسه المختلفة ؛ فهو قد ولد ومعه غرائزه وميوله الفطرية . وهذه تنشط للتفاعل مع البيئة التى يجب كشفها ومعرفتها عن طريق الحواس ، وفى الأسابيع الأولى من حياة الطفل لا يشعر بالفرق بين الضوء والظلمة ، ولكنه بالتدريج يدرك درجات الضوء ، ويتعلم كيف يحدد بصره فى الأشياء التى يبصرها القريبة والبعيدة ، وكذلك يدرك الفرق بين الألوان فى الشهر الثانى[1] . أو الثالث من ولادته . وأما حاسة السمع فمعلوماتنا عن نموها قليلة . ويظهر أنها لاتقوم بوظيفتها مبكرة كالعين ، ولكن فى نهاية الشهر الرابع يدرك الطفل الفرق بين الأصوات المختلفة . وفى أثناء الأشهر الأولى تكون حركات الطفل طائشة وعشوائية ، ولا يستطيع ضبط عضلات يديه ورجليه ، ولكنه يتمرن بالتدريج على استعمال يديه فى القبض على الأشياء والوصول إليها . وهو بهذا النمو فى الحواس والعضلات يزيد معرفته بالبيئة المحيطة به ، ويكون بعض العادات البسيطة ، ويغير من سلوكه وفقاً لهذه المعارف الجديدة ، وحتى فى الأشهر الأولى يتعلم كيف يضبط حركات الفم والرأس والظهر والأرجل . وفى السنة الأولى يتمكن من بعض المهارات البسيطة كالجلوس والوقوف ، وإصدار بعض الأصوات . ثم يتعلم بعد ذلك الحبو والمشى وصعود السلالم وهبوطها ، والجرى ، والكلام . وكل هذه المهارات تحتاج إلى تنسيق فى حركات الأعضاء

(١) صفحة ٦١ من تقرير Infant and Nursery School

وملاءمة بين عضلات الحس وعضلات الحركة [١].

وهكذا تنمو عضلات الأطفال وتنمو مع ذلك قدرتهم على ضبط هذه العضلات واستخدامها فى اللعب ، والخبرة ، والأكل ، والشرب ، والملبس ، والكتابة ، والتعلم. ويقول « روسو » : إن أول الوسائل التى نتعلم بها الفلسفة هى أقدامنا وأيدينا وأعيننا .

وأما النمو العقلى فقد أمكن فى السنوات الأخيرة قياسه عن طريق ملاحظة سلوك الأطفال ، وإجراء اختبارات عليهم . نعم كان « بينيه » أول من استعمل مقاييس لاختبار ذكاء الأطفال فى سن الثالثة والرابعة ، ولكنها ليست موضع كثير من الثقة الآن. وأشهر المعاصرين الذين درسوا نمو الأطفال العقلى Gesell الأمريكانى . فقد نظم دراسات وافية وتحارب على الأطفال فى عيادة « بيل » السيكولوجية . ولاحظ سلوكهم فى ظروف عادية وسجل أعمالهم بصور وأفلام . وبذلك استطاع أن يصل إلى نتائج قيمة عن نمو الأطفال العقلى [٢] من الولادة إلى سن الخامسة ، ومن الواضح أن الكلام والمشى — على الرغم من أنهما مظهران للنمو — هما أيضاً عاملان من العوامل التى تساعد على نمو الطفل العقلى ، وذلك باتساع دائرة تجاربه ومعرفته للأشياء عن طريق الخبرة الشخصية ، وعن طريق التخاطب والتفاهم ومعرفة آراء غيره بالسؤال . وكذلك لاستخدام حاسة اللمس والحاسة العضلية أثر فى معرفة الطفل لبيئته ، ثم إن استخدام الفم عند الطفل يساعد على فحص الأشياء ومعرفة حلوها من مرها ، صلبها من لينها ، فكأن هذه الحواس المختلفة ولا سيما الفم تزيد فى معرفة الطفل وتساعد على نمو عقله .

وظهور اللغة عند الطفل فى هذه المرحلة من العوامل المهمة فى حياته كما ذكرنا ، والطفل سريع المحاكاة قوى التقليد . وهو يستخدم لسانه كما يستخدم لعبته ، فينمو تفكيره بنمو لغته . وقد أثبتت الأبحاث أن الأطفال المتخلفين فى النمو اللغوى متخلفون أيضاً فى الذكاء [٣].

والطفل الذى كان يعتمد على غيره فى الانتقال والحركة يعتمد الآن بعد المشى

---

(١) صفحة ٧٠ من تقرير Infant and Nursery School

(٢) انظر كتاب الحضانة ص ٥٥ وما بعدها تأليف Susan Isaacs وترجمة الأستاذة سمية فهمى

(٣) انظر كتاب The Backward Child, by C. Burt

على نفسه فى كشف الأماكن ، وتقدير المسافات ، والمرتفعات والمنخفضات ، عند ما يحاول أن ينزل من فوق سريره أو كرسيه ، أو أن يصعد على أحدهما .

ولما كان الطفل فى عالم غريب عنه كان من الضرورة أن يختبر كل ما يقع تحت بصره . فيفحصه ويخبطه ويكسره أو يرمى به . كل هذا فى حركات عنيفة وغير منظمة، ثم تنتظم بالتدريج . ولذلك ينظر الآباء إليها كأنها حركات تخريب وتدمير .

وقد زودت مدرسة الحضانة ومدارس الأطفال والرياض ، بالكثير من اللعب المناسبة والأدوات والوسائل ، التى يجد فيها الطفل مجالا للعب والتسلية . وهى فى الوقت نفسه تعليمية مفيدة كما فى هدايا « فروبل » ، ولعب « مدام منتسورى » التى تعمل على تمرين الحواس ، والعضلات ، والحكم على الأشياء ، بل الأشخاص أيضاً ، فهو يعرف أقاربه ، ويحدد علاقته بهم ، وهو يميز بينهم وبين غيرهم ، ويتعلم احترامهم ، وتتكون عنده عاطفة حبهم ، وينوع سلوكه نحوهم — بحسب صلته بهم .

وخيال الطفل فى هذه السنة غير مقيد ، وهو خيال غير خاضع للواقع ، فهو يرسم البقرة — مثلا — ولها ست أرجل ، واليد وبها عشر أصابع . ويعلل علماء النفس هذا الخيال ، بأنه لم يستكمل النضج بالتجربة فى الحياة الواقعية ، وبأن إسراف الطفل فيه هروب من الواقع الشاق عليه .

وفى اللعب يبتكر الأطفال ، ويحاكون ، وهم يكثرون من الزعم ، والافتراض Make-belief والتمثيل . فالبنت تلاعب العروسة ، وتغنى لها ، كأنها طفلتها ؛ وهى تعمل لنفسها بيتاً ، وترتبه وتطبخ ، وتغسل ، وتكوى ، كما تفعل أمها . والولد يركب العصا ، ويتخذها حصاناً ، وهو يحاكى أباه فى لبس المنظار ، وقراءة الصحيفة ، ويدعى أنه شرطى ، أو أنه طبيب جاء لمعالجة أخيه الصغير المريض وكل هذه الميول ، والظواهر العقلية ، تهدف إلى زيادة خبرة الطفل ومعرفته بالبيئة التى يعيش فيها .

وفى هذه المرحلة يكون الطفل فكرة عن نفسه ، وهو أنانى ، يجب أن يحتفظ بكل شىء لنفسه ، ويستخدم من حوله وسائل تحقيق رغباته ، فهو يحب والده ، لأنه يحضر له الحلوى ، ويكره أخته ، لأنها حرمته من اللعب

معها ، أو ضربته ، ولكنه لا يلبث أن يحبها لأنها أعطته قطعة من الورق الفضى اللامع . فاهتمامه بذاته فى هذه المرحلة شديد .

وقد أجريت تجارب دلت على أن الأطفال فى هذه المرحلة ، قادرون على التعليل ، وإدراك العلاقات بين الأشياء البسيطة التى تتصل بحياتهم ، كالمفاتيح والأقفال واستخدام المقعد للصعود عليه ، والوصول إلى شىء بعيد ، وكيفية الخروج من مكان إذا أقفل بابه ، وهكذا من المسائل التى لم يسبق لهم تجربتها بذاتها .

وفى النصف الأخير من هذه المرحلة ، يكثر الأطفال من السؤال : ما هذا ؟ ولماذا ؟ وكيف؟ وهذا التساؤل ضرورى ، ليروى ما عندهم من تعطش لمعرفة حقيقة البيئة المحيطة ، وخصائص ما بها .

أما من الناحية الوجدانية ، فالطفل سريع الغضب ، سريع الفرح : فهو إذاً متقلب الوجدان ، والانفعال ، وهو كثير الخوف ، شديد الغيرة ، واخيرة .

ويرى علماء النفس أن لخبرات الطفل الوجدانية ، فى طفولته الأولى أثراً دائماً فى حياته . ويقولون : إن أسس الخلق توضع فى هذه المرحلة الأولى من حياته . وقد ظهر لعلماء النفس أن كثيراً من حالات الاضطراب العقلى ، والخلقى يرجع أصلها إلى حوادث وقعت فى عهد الطفولة . وكشفت أبحاث التحليل النفسى عن أن لاضطراب حياة الطفل الأثر فى سلوكه الإجرامى ، وخطئه فى الأحكام وشذوذه الخلقى . ومن ذلك ما لوحظ على ضابط فى الجيش البريطانى من أنه — أثناء الحرب العالمية الأولى — كان يهرب من الخطوط الخلفية فى الخنادق ، ويذهب إلى الخطوط الأمامية المعرضة لخطر العدو . ودل التحليل النفسى على أنه كانت تعاقبه أمه — وهو فى طفولته الأولى — بسجنه فى حجرة صغيرة مظلمة[1] .

ومن هذا يتبين خطأ ما يقع فيه الآباء من تخويف الأطفال بالعول ، والحرامى . إلخ . وتتبين حاجة الطفل إلى الطمأنينة ، والثقة ، والعطف ، حتى تنمو وجداناته نمواً متزناً .

وفى هذه المرحلة يبدأ الطفل فى تكوين العواطف حول الأشخاص ،

---

(١) W.H R. Rivers, Instinct and Unconscious.

والأشياء المحسوسة . كعاطفة حب الأم ، وحب بعض الحيوان ، وحب المدرسة . وعلى ذلك فمن الضرورى أن تكون العواطف الصالحة أساس الخلق . واستجابة الآباء فى هذه المرحلة لسلوك الطفل ، وتوجيهه ، لهما الأثر فى تكوين الخلق ، فقسوتهم عليه وإهمالهم إياه ، أو تدليله ، والإسراف فى الاهتمام به . كل هذه تترك فى خلق الطفل أثراً لا يمحى .

من أجل هذا ، وجب على الآباء ، ومن يشرفون على تربية الطفل ، أن يحيطوه بجو من الهدوء ، والاتزان ، والإرشاد الواضح ، وأن تكون معاملتهم له ثابتة غير مذبذبة ، وألا يجعلوا عاطفتهم تسود عقلهم ، عند تطبيق قوانين التربية الصحيحة عليه من حيث : جسمه ، وعقله ، وخلقه .

ويمكن تلخيص ما يجب على المنزل والمدرسة ، نحو الطفل فى هذه المرحلة ، فيما يأتى :

١ ــ العناية بصحته ونموه من حيث : الغذاء والراحة ، والهواء ، والشمس .

٢ ــ عدم تحديه ، وإثارة غيرته ، وغضبه .

٣ ــ عدم تكليفه بأعمال تستدعى دقة فى الحركات ، وتكييف العضلات .

٤ ــ مزج التعلم باللعب والتمثيل ، واستخدام المحسوسات من الوسائل ، والأدوات ، واللعب ، والإكثار من الخبرة الشخصية .

٥ ــ تقصير زمن الحصص ، حتى لا يمل الدرس ، إذا كانت الرياض تقسم زمنها إلى حصص يدرس فيها شىء .

٦ ــ استخدام خياله فى سرد القصص المناسبة ، وتشجيعه هو على سردها ، أو رسم بعض المناظر منها .

٧ ــ استخدام القصص فى تربيته الخلقية ، والعقلية ، لما تحتويه من أفكار ومعان ، ولا سيما إذا كانت على ألسنة الحيوان .

٨ ــ الانتفاع من ميله للحل والتركيب فى تعليمه .

٩ ــ الانتفاع من كثرة أسئلته : لماذا ؟ كيف ؟ ماذا ؟

١٠ ــ إحاطته بالعطف والثقة .

١١ ــ أن تكون معاملته متزنة مضطردة ، لا تحيز فيها .

الطفولة المتأخرة Late Childhood
من ٥ إلى ١٢

تشتمل هذه المرحلة فترتين ، فترة الوثبة الثانية فى النمو الجسمانى ، وفترة التثبيت الثانى أيضاً . وهى المرحلة التى يبدأ الطفل فيها بالذهاب إلى المدرسة بصفة إلزامية[١] . ولذلك فأهمية هذه المرحلة لا تقتصر على الأسرة وواجباتها نحو الطفل ، ولكن تتعداها إلى واجبات المدرسة نحوه ، لأنها شريكة للأسرة فى تربيته .

الخصائص الجسمانية :

تتميز الفترة من٥ إلى ٧ بأنها فترة نمو سريع فى الطول ، ولكن وزن الطفل لا يستمر فى النمو بنفس النسبة بل يقل عنها ؛ لذلك يبدو الطفل أرفع وأنحف مما كان عليه من قبل . وتظهر النحافة بوضوح فى الوجه الذى تأخذ ملامحه فى الظهور والتمييز .

وفى هذه الفترة تبدأ الأسنان اللبنية فى السقوط ليحل محلها الأسنان الدائمة ، وينمو المخ سريعاً ، ويكاد يصل إلى أقصى نموه فى الوزن عند سن السابعة[٢] . ويكون الطفل فى هذه الفترة عرضة للعدوى ببعض الأمراض كالسعال الديكى ، والحصبة والجدرى . وذلك نتيجة لنموه الجسمانى السريع . ومن أعراض هذه الأمراض أن يفقد الطفل جزءاً من وزنه فيبدو نحيلا هزيلا .

وتلى هذه الفترة فترة بطء فى النمو الجسمانى (من ٧ — ١٢) تتحسن فيها صحة الطفل ، ويزداد نشاطه وحركته فيتسلق الأشجار والحيطان ، ويسرف فى الألعاب الحركية . ولذلك تسمى هذه المرحلة « مرحلة الحركة والنشاط » . ويقل تعرضه للتعب ، ويصبح قادراً على مواصلة العمل الحركى ساعات طويلة . وتقوى عضلات الطفل ، ويصير أقدر وأدق فى ضبط الأعمال التى تحتاج إلى التكييف الحركى كالرسم ، والأشغال اليدوية ، والخياطة ، والتطريز .

---

(١) تبدأ سن الإلزام فى السادسة عند بعض الأمم ، وفى السابعة عند بعضها الآخر كما فى مصر

(٢) Creative Education & the Future, by Oliver Wheeler. P. 124.

الخصائص العقلية :

بدأ الطفل فى المرحلة السابقة أنواعاً شتى من النشاط . وعدداً من المهارات اللغوية والعقلية والحركية ، ولكنه كان غير دقيق ، وغير مستقر ، يتخبط ويتعثر ، ويعوزه الإتقان فيما يقوم به . وهذا طبيعى لأنه فى أول مراحل التعليم ، ولأن فترة الخبرة ما زالت قصيرة . أما فى هذه المرحلة فيتمكن الطفل من إتقان هذه الخبرات والمهارات بالتدريب عليها ، وبنمو عقله وتجاربه وأفقه وبيئته . وفى هذه المرحلة أيضاً تكون معظم الغرائز قد تميزت ، ومن أهمها وأقواها غريزة حب الاطلاع التى تحفز الطفل إلى الكشف عن « كيف ولم » تعمل الساعة — مثلا — أو الطيارة ، أو السيارة ، أو الأجراس الكهربائية وغير هذه مما تقع عليها حواسه . وهذا يؤدى به إلى البحث والاهتمام بالحل والتركيب [١] ذى الغاية . ومن الممكن أن يكون هذه النوع من النشاط مجالا طيباً لاكتساب قدر كبير من المعلومات . كدراسة الطير والحيوان ، وأثر البيئة فى النباتات ذات الأزهار وفى الأشجار ، ودراسة بعض الأماكن من الناحية الجغرافية والطبوغرافية .

ويستمر نمو الطفل العقلى فى هذه المرحلة ، ويتقدم إدراكه للعلاقات بين أجزاء الأشياء المركبة ، ويتسع مدى هذا الإدراك ، ويزيد وضوحاً ، ويصبح الطفل أقدر على تركيب الأشياء المعقدة [٢] .

وواضح أن نسبة الذكاء العام عند هذا الطفل لا تتغير إلا نادراً — بنموه — وإنما يظل محافظاً على نسبته كما كان فى المرحلة السابقة . وكل ما يحدث — كما يقول سيرل برت — هو أنه يصبح أقدر على إدراك وفهم مسائل أكثر تعقيداً ، وأوسع مدى ، وأكثر تنويعاً مما كان يدركه من قبل [٣] .

وفى هذه المرحلة تبدأ كل القوى العقلية من تذكر وتفكر وانتباه فى النضج ، ولا سيما بعد سن التاسعة . ولذلك يرى علماء النفس خطأ الفكرة القديمة القائلة

---

(١) The Primary School, Report by Board of Education

(٢) Intellectual Growth in Young Children, by S. Issacs

(٣) "All the elementaryMental mechanisms essential to formal reasoning are present before the child leaves the infants. department, that is, by the mantal age of 7, if not somewhat before. Development consists primarily in an increase in the extent and variety of the subject matter, to which mechanisms can be applied" (The Development of Reasoning in School Children, Jour-Ex. 1919 Pad by C. Burt).

بضرورة أن يحفظ الطفل فى هذه المرحلة كثيراً من مواد الدراسة حفظاً آلياً . فالواجب إذاً هو الاعتماد على البحث والتفكير وعلى الذاكرة المنطقية ، وعلى حفز الطفل للعمل والتكرار عن طريق ميوله ، ومصادر الشوق لديه[١] .

وفى هذه المرحلة تزيد قدرة الطفل على الانتباه بالنسبة للمرحلة السابقة ، وتستمر فى اطراد الزيادة إلى سن الحادية عشرة . فبينما الطفل فى المرحلة السابقة سريع الملل ، قصيرة الانتباه ، نجده هنا أقدر على الانتباه الإرادى . وعلى هذا فالحصة المقدرة بالمدارس الابتدائية ما زالت طويلة إذا كانت تنفق جميعها فى عمل عقلى من نوع واحد . وفى هذه الحال يجب أن يقصر زمن الحصة حتى يصبح ثلاثين دقيقة للسنوات الأولى ، أو ينوع العمل أثناءها تنويعاً يبعث اهتمام الطفل . على أن المهم هو اهتمام الطفل وشوقه ؛ فإذا كان العمل شائقاً بطبعه كالتمثيل ، والأشغال اليدوية ، والغناء ، والألعاب ، وغير ذلك مما يثير غرائز الطفل وميوله فلا بأس من طول الحصة .

وفى منتصف هذه المرحلة يأخذ الطفل فى الانتقال من طور الخيال والإيهام إلى طور الواقعية ، ويعتبر عملياً فى نظرته لبيئته ، ويقدر الأشياء وفقاً لقيمتها العملية ، ويصر على التمسك بالحقيقة ، ويتحرر من اللعب الإيهامى ، ويهتم بالألعاب الواقعية .

ومن مظاهر هذه المرحلة نمو غريزة الملكية نمواً[٢] واضحاً يظهر فى حرص الطفل على « الجمع والاقتناء » . فهو يجمع طوابع البريد ، والصور الملونة ، ويشترك بحماس مع زملائه فى جمع الفراش لدروس المشروعات ، ويلح فى ادخار النقود وأن تكون له « حصالة » . ولهذا الميل قيمة اجتماعية هامة . وتستطيع المدرسة أن تستثمره فى تكوين مكتبة الفصل أو المتحف ، أو جمع جذاذات من المجلات عن موضوع بذاته . وقد يطغى هذا الميل فيدفع الطفل إلى البخل والسرقة .

الخصائص المزاجية والاجتماعية :

الطفل فى هذه المرحلة ثابت مستقر قليل المشكلات الانفعالية إذا قورن به فى المرحلة السابقة ، ولو أن الفترة من الخامسة إلى السابعة تعتبر ما زالت متصلة

---

(١) ص ١٤٤ — ١٤٥ أسس الصحة النفسية للدكتور عبد العزيز القوصى .

(٢) Fundamentals of Child Study, by Kirkpatrick.

بالطفولة الأولى من حيث سلوك الطفل الانفعالى . وفى الفترة التالية (٧ — ١٢) يبدأ الطفل يتخفف من تعلقه بوالديه ، ويتجه نحو قرنائه ممن هم فى سنه أو أكبر قليلا . وهو يميل إلى الكشف والتجول والمخاطرة والمصادقة . وتقول « سوزان إيزاكس » : « ثم إن شعور الطفل بتحلله من قيود عواطفه ومزاجه كلما قارب الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، وحاجته إلى التجربة ، وتعرف خبايا بيئته ، كل هذا يحمله على التوسع و إمعان التجول خلال المحيط الذى يعيش فيه مدينة كان أو ريفاً . وهذه هى الفرصة الوحيدة التى تهيئ للطفل سبل التوسع فى معرفته وتنظيمها » .

وتتميز هذه المرحلة بشدة غرام الطفل باللعب من أنواع مختلفة ، ففى أولها تكون ألعابه إيهامية خيالية ! كركوب العصا وجعلها حصاناً ، وترتيب الأحجار ، لجعلها منزلا ، وإرضاع الدمية باعتبارها وليداً ، وهو فى ألعابه هذه مهتم بنفسه ملتف حولها egocentric وقد يبدو منه شىء من التعاون ولكنه قصير المدى أما بعد سن السابعة فألعابه واقعية ، كركوب العجلات ، واللعب بالبلى ، والرقص واللعب « بالميكانو » والتسلى بالرسم أو الخياطة . ويغلب أن تكون ألعابه جمعية . ولو أن الأطفال لا يهتمون باللعب الجمعى المنظم فى شكل فريق team إلا فى أواخر هذه المرحلة[1] . .

وهذا الميل إلى اللعب الجمعى مظهر من مظاهر ميل الطفل الاجتماعى ففى هذه المرحلة تظهر الغريزة الاجتماعية واضحة قوية . نعم إن الطفل فى المرحلة السابقة لا يحب الوحدة ، ولكنه يستعمل الكبار كوسائل فقط لجلب السرور لنفسه ، غير أنه فى نشاطه egocentric ، كما يقول علماء النفس . أما فى هذه المرحلة — مرحلة الطفولة المتأخرة — فهو مغرم بمقابلة زملائه ، وزياراتهم ، وترتيب مواعيد للخروج واللعب معهم . حقيقة أن الطفل لم يصبح بعد اجتماعياً الدرجة التضحية والإيثار ، ولكنه بالرغم من هذا مغرم بالاشتراك مع زملائه فى اللعب والمغامرة[2] .

---

(١) يسمى بعض العلماء هذه الفترة من الألعاب الجمعية غير المنظمة : "The Red Indian age" أو "The gang age" يريدون بذلك تكوين الفرق ، والاشتراك فى نشاط يشملهم جميعهم .

(٢) Ground Work of Educational Psychology by Ross — Education, Its Data & First Principles by P, Nunn.

التربية ، ومادتها ومبادئها الأولية ترجمة الأستاذ صالح عبد العزيز .

وميل الطفل إلى الاجتماع ، ومعاشرة الغير ، والاشتراك مع زملائه فى اللعب والعمل يجعله يتنبه إلى رأى الناس فى تصرفاته فهو يفكر فيما يقولون عنه من مدح أو ذم ، وهذا هو أساس السلوك الاجتماعى . وهو يحاول أن يتحرى ما يرضى الناس ليعمله ، ويشعر بسخطهم إذا خرج على تقاليدهم فيتحاشى هذا الخروج ، نعم إنه خاضع لنظام فريقه وقوانينه أكثر من تقاليد المجتمع ، ولكنه فى الوقت نفسه يشعر بأن للمجتمع الصغير الذى يحيط به رقابة عليه فى سلوكه . إنه يشعر بالطبع بوجوب إطاعة الفريق الذى ينتمى إليه أولا ، ثم إطاعة السلطة الأخرى التى هى خارج الفريق ثانياً . ولكن تنازع السلطات وتنازع الطاعة كثيراً ما يخلق بعض المشكلات فيستعين على حلها بالعقل والقيادة والتوجيه من الكبار . ومن أجل هذا كانت الجمعيات المدرسية المنظمة خير بيئة لترقية هذه الميول وتوجيهها التوجيه الصحيح . فتربى فى الطفل الطاعة النافعة لجمعيته ومدرسته أيضاً . وتوجهه إلى فعل الخير والصالح للجماعة . وتستفيد من نشاطه الجمعى[1] .

ونلخص فيما يأتى ما يجب على الأسرة والمدرسة نحو الطفل فى هذه المرحلة :

١ — الإكثار من أنواع النشاط المدرسى والرحلات والأعمال الجمعية .

٢ — مساعدة الطفل على أن يستقى معلوماته من الملاحظة والتجربة ودراسة البيئة التى تحيط به ، بدلا من نقل المعارف إليه مهيأة جاهزة شفهياً أو عن طريق الكتب كما هى الحال فى المدارس التقليدية .

٣ — إشباع غريزة حب الاطلاع بمنح الطفل الفرص اللازمة للبحث والقراءة ، وتنظيم جهوده ، وتوجيهه إلى مصادر الاطلاع .

٤ — الاستمرار فى استخدام وسائل الإيضاح ، إذ أن الطفل ما زال فى حاجة إلى تعلم الأشياء عن طريق مدلولاتها لا أسمائها فقط (راجع باب وسائل الإيضاح) .

٥ — إشباع ميل الطفل إلى الملكية ، بتشجيعه على تملك الكتب بطرق مشروعة ، وطوابع البريد ، والأزهار ، ونماذج لمتحف المدرسة ، وصور العظماء ، وادخار النقود .

---

(١) The School & Society, by John Dewey.

٦ – استغلال ميله الجمعى فى العمل المشترك . وتقويم أخلاقه وتعوده تحمل المسئولية ، والشعور بالواجب ، واحترام القانون . وهذا ما يسمى بالأسلوب غير المباشر فى التربية الخلقية .

٧ – عدم الاعتماد على الذاكرة الآلية ، واستخدام التعقل والاستدلال والذاكرة المنطقية .

٨ – اختيار الرفقاء والأصدقاء ، لأن الطفل فى هذه المرحلة متأثر أشد التأثر بروح الفريق .

المراهقة والبلوغ

Youth or Adolescence

من ١٢ – ٢٠

هذه المرحلة تمثل مرحلة الانتقال من الطفولة المعتمدة على الغير ، الطفولة الضعيفة – إلى الرجولة المستقلة الناضجة . ولما كانت هذه المرحلة ستنتهى بالنضج ، وكان الناشئ قبل ذلك طفلا ، كان لابد من أن تكون مرحلة المراهقة والبلوغ هذه ، مرحلة انتقال واضطراب جثمانى واجتماعى ووجدانى .

وقد كان علماء النفس ينظرون إلى هذه المرحلة باعتبارها أهم مراحل النمو من حيث تكوين الناشئ الجسمى والعقلى والخلقى ، وتكوين عاداته وميوله... إلخ

غير أن الرأى اتجه أخيراً إلى اعتبار مرحلة الطفولة مرحلة أهم من المراهقة ، والبلوغ . ويجب أن نذكر أن هذه المرحلة – كغيرها من المراحل – لا تتميز بانتقال مفاجئ ، ولكن النمو فيها تدريجى ، وإن كان يتميز بخصائص تختلف عن خصائص المرحلتين السابقتين .

وتنقسم هذه المرحلة إلى طورين يتصل أحدهما بالآخر هما :

١ – طور المراهقة(١٢ – ١٤) Puberty or early adolescence وهو طور شديد العنف والاضطراب .

٢ – طور البلوغ (١٤ – ٢٠) late adolescence أقل عنفاً ، ولما كان الطور الثانى امتداداً للطور الأول اعتبرا مرحلة واحدة .

النمو الجسمانى : يكون نمو الجسم فى أول هذه المرحلة سريعاً : فتوسط نمو المراهق من حيث الوزن والطول فى السنة قد يصل إلى ضعف متوسط نموه فى أواخر المرحلة السابقة (وذلك النمو عند البنات من ١١ — ١٣ وعند البنين من ١٣ — ١٤) غير أن هذا النمو لا يستمر مطرداً فى بقية المرحلة ، بل يأخذ فى النقص تدريجياً ، ونمو العظام أسرع من نمو العضلات ، ولذلك نلاحظ نحافة جسم المراهق فى أول المرحلة . ومعنى هذا النمو السريع استنفاد سريع لطاقة الجسم ، وحاجة المراهق إلى تعويضها بالغذاء الجيد والراحة والهواء . ولذلك ننصح المشرفين على تربية المراهق ألا يرهقوه بالأعمال الجسمية الكثيرة . ولهذا النمو الجثمانى الظاهر أثره فى تيقظ انتباه الغلام لحالته الجديدة من النمو وطول الجسم وطول الأطراف ، وقد يترتب على وعيه هذا وانتباهه — خجله واضطرابه ، واضطراب حركاته ورعونته ، وتغير فى سلوكه أثناء المشى والحركة .

والمدرس العاقل هو الذى لا يلفت نظر الغلام لهذا النمو ، بل يترك الأمور تسير طبيعياً . وعلى المشرفين على البنات فى هذا الدور أن يدركوا أن البنات معرضات للتعب الكثير ، فلا يكثرون عليهن الواجبات المنزلية ، ولا يكلفونهن من الأعمال ما قد يترتب عليه نمو القوام نمواً مشوهاً .

ومن مظاهر النمو الجثمانى تغير شكل الحنجرة وتغير الصوت وغلظه عند البنين . وقد يكون هذا التغير مفاجئاً ، وعلى هذا قد يفقد الغلام القدرة على ضبط صوته ، وقد تعلوه حالة تردد واضطراب عند الحديث ، ولا يدرى ما إذا كان يتكلم بصوت مرتفع أو منخفض ضخم أو رفيع ، وتغير الصوت عند البنت يكون تدريجياً .

ومن مظاهر النمو بدء ظهور شعر اللحية والشارب عند الغلام ، وكذلك شعر العانة والخصيتين ، وينمو الشعر تحت إبط البنت والولد ، ويبدأ ثديا البنت فى النمو تدريجياً ليقظة الغريزة الجنسية ونضجها ، كما تنمو أعضاء التناسل نمواً سريعاً ، ويظهر الحيض عند البنت ، ويصحبه تضخم فى الغدد الدرقية ، وتتغير عملية التمثيل عندها تغيراً يستدعيه هذا النمو الجثمانى .

وهذا التغير الجثمانى هو نتيجة نشاط لبعض الغدد[1] ، مثل النخامية

---

(١) Education of the Adolescent, Report, by Board of Education.

والتناسلية وفتور بعضها مثل الصنوبرية . ومن نتائج هذا النمو الجثمانى ما قد يظهر عند البنات من فقر فى الدم . وعند البنين من أمراض الرئتين والقلب . وتنمو الغريزة الجنسية فى هذا السن ، كما تنمو معها الغدد التناسلية وأعضاء التناسل كما قلنا . ولهذا النمو آثاره الوجدانية والاجتماعية التى سنشير إليها فيما بعد .

النمو العقلى : يرى علماء النفس أن نمو الذكاء العام يصل أقصاه حوالى سن ١٦ ولا ينمو بعد ذلك . وكل ما نشاهده من زيادة الفهم والإدراك بعد هذه السن إنما هو نتيجة للخبرة والتجارب المكتسبة لا للذكاء الموروث .

وقد لاحظوا أيضاً أن نمو الذكاء العام عند المراهقين الموهوبين قد يستمر بعد السادسة عشرة إلى الثامنة عشرة ، بينما المتوسطون يقف نمو ذكائهم قبل ذلك . والمتأخرون يقف النمو عندهم فى سن مبكرة . أما القدرات الخاصة فتظهر بوضوح حوالى ١٤ ، ولا تتميز تماماً قبل السادسة عشرة . لذلك كانت الفترة من ١٤ إلى ١٦ فترة توجيه مهنى وتوجيه دراسى ، وتظهر فى هذه المرحلة الميول المختلفة بوضوح ، وقد أجريت[1] بعض الاختبارات بقصد كشف الميول فى هذه المرحلة فظهر أن نحواً من ٦٤ ٪ من الطلبة يميلون إلى قراءة الأدب والسير ، ونحواً من ٣٣ ٪ يميلون إلى العلوم والرياضيات .

وفى هذه المرحلة ينمو خيال المراهق نموًّا خصباً، وتظهر خصوبته فى رسمه وكتاباته وإنتاجه الشعرى ، وينتقل تفكيره من المحسوسات إلى المعقولات المجردة ، كما يتجه تفكيره نحو المتيافيزيقا وما وراء الطبيعة من خالق مدبر . ويزداد عنده التفكير الفلسفى وتفسير الظواهر الطبيعية تفسيراً يتفق مع فلسفته .

وهو فى هذه المرحلة يميل إلى التفكير الدينى ، وإلى الاعتماد على المنطق أكثر من اعتماده على الذاكرة الآلية ، ويلجأ إلى المناقشة والمحاجة كأنه يريد أن يكون لنفسه مبادئ عن الحياة والمجتمع . وتقول (أوليف هويلر) فى كتابها Youth إن المراهقين يظهرون ميلا قوياً إلى القراءة والاطلاع ، ولا سيما فى كتب الأدب والفلسفة ، والدين والرحلات وأخبار الأبطال . وهم فى هذه المرحلة يغرمون بتقليد من يختارون من الأبطال ليكونوا مثلهم العليا . ولا غرابة فى ذلك فالمرحلة مرحلة تكوين سابقة للرجولة ، ومن الضرورى البدء فى تكوين المثل الاجتماعية التى سيتخذها الشاب فى مستقبله .

---

(١) Youth, by Oliver Wheeler.

ولما كانت هذه المرحلة تمتاز بشغف المراهق بالقراءة والبحث عن المعرفة ، كان من الواجب أن نمده بالكتب المثقفة المناسبة التى تشبع رغبته وتفسر له مشكلاته تفسيراً سهلا مناسباً ، وإذا كانت الكتب مصدر تثقيف عام فى هذه المرحلة فهى أيضاً مصدر من مصادر التكوين الخلقى بذكر أمثلة للأبطال الخالدين والسلوك الخلقى الكريم ، غير أنه يخشى أن يقدم للشبان نوع فاسد من هذه الكتب . النمو الوجدانى : وهو من أهم أنواع النمو فى هذه المرحلة ، ومن الطبيعى أننا لا نستطيع أن نعزل النمو الوجدانى عن النمو الجسمى والنمو الاجتماعى والعقلى والخلقى فنشاط الغدد الجنسية ، ويقظة الغريزة الجنسية ، يصحبه ميل إلى الجنس الآخر ،وهذا الميل قد يكون صريحاً جريئاً، وقد يكون معتدلا متزناً ، وقد يكون مختفياً تحت ستار من الخجل ، والتردد والحرص على التقاليد، وهذا كله بحسب بيئة المراهق وتربيته الأولى . ولذلك كانت المشكلة الجنسية فى هذه المرحلة من أشد المشكلات .

فهذا الحافز الغريزى على القيام بوظيفة التناسل كان يحقق فى الماضى بالطريق الشرعى عندما يصل الفتى إلى سن البلوغ ، إذ كانت سن الزواج — عادة — مبكرة . وكانت الأسرة تعجل به صيانة للفتى والفتاة من العبث الجنسى ، ورغبة أيضاً فى كثرة الذرية . ولكن الزواج ليس عقداً بيولوجياً فقط ، ولكنه عقد اجتماعى تترتب عليه تبعات جسام ، هى ككفالة الأطفال ورعايتهم والقدرة على إعاشتهم وتربيتهم ، ولما كانت الظروف الاقتصادية فى العصر الحاضر لا تسمح بهذه الكفالة والرعاية والإعاشة ، وكان استقلال الفرد الاقتصادى يتأخر سنوات عن سن البلوغ ، وكلما ارتقت البيئة وتعقدت نظم الحياة فيها تأخرت سن الزواج وطالت الفترة بين البلوغ والزواج [١] ، وكثرت المشكلات الجنسية — لما كان هذا كله اهتم المربون وعلماء النفس بالمشكلات الجنسية والشذوذ الجنسى ، واتجهوا نحو إيجاد وسائل من الإعلاء والإبدال لهذه الغريزة بتربية النشء تربية جنسية تخفف من حدة هذه الرغبة .

وتبدأ مظاهر هذا النمو الجنسى فى السلوك الاجتماعى للناشئ ، فهو يحاول التجمل فى الزى والمظهر ليجذب إليه الجنس الآخر . ويحاول التعرف عليه

---

(١) The Psychology of the Adolescent, by Leta S. Hollingworth.

ولكنه متردد مضطرب خجول ، يقر بالخوف والخطيئة . ولا يدرى كيف يسلك أو يتصرف فى حضرة الجنس الآخر ، وهو دائم الصراع النفسى بين الرغبة والرهبة .

ومن مظاهر النمو الوجدانى كثرة انفعالات الناشئ ، فهو قادم على جو جديد عليه ، ومجتمع من الكبار يسبقه فى التجارب والمعرفة ، وهو لا يريد أن يظل خاضعاً لسلطة الكبار التى ألفها من قبل ، وهو يشعر بنموه الجسمى والعقلى ، ويريد أن يتحرر من السلطة ولكن الكبار حريصون على نظرتهم إليه باعتباره طفل أمس ، فهو يقاوم سلطانهم ، ويثور عليهم ويتحداهم ويرى نفسه جديراً بأن يفكر لنفسه ، وأن يكون له رأى يعتد به . ولكنه لم ينضج بعد فهو يواجه الحقيقة الواقعة فى الخارج وقد تصدمه ، وقد لا يقدر على معالجة مشكلاتها فيضطرب ويظهر عجزه ، ويتناقض فى رأيه ويثور ضد الحياة والمجتمع . وينقد المجتمع كما ينقد نفسه أحياناً ، وينزوى وينعزل عن الناس وقد يلجأ للتصوف ، وقد يندفع إلى الاجتماع بالناس لقوة غريزة الاجتماع عنده . فهو متطرف فى كل شىء ، لأنه طموح يريد أن يعمل ويظهر ، ولأنه بحكم عدم استقراره ونقص معرفته — عاجز عن تحقيق هذا الطموح .

لذلك نجده أرعن السلوك مرتبكاً بسبب نقص معرفته ، وبسبب نموه الجسمانى . ويصحب كل هذا أزمات نفسية حادة وشذوذ أحياناً ، وهو يهرب من الحقيقة إلى أحلام اليقظة لينفس عن نفسه ، ويخلق الجو الذى يريد أن يعيش فيه . فتراه خيالياً رومنتيكياً ؛ فيتخيل نفسه بطلا من أبطال الحياة ، ويبنى لنفسه مستقبلا فى الهواء . ولذلك تكون أفكار الناشئ فى هذه المرحلة مثالية خيالية ، يغلب عليها الاندفاع والتهور والحماس .

وقد وجهت أوليف هويلر[١] سؤالا إلى مجموعة كبيرة من طلبة الجامعة والعمال وهو : أتذكر أن أحلام اليقظة كانت تعرض لك بانتظام :

(ا) فى مرحلة الطفولة ، أو :

(ب) فى مرحلة المراهقة والبلوغ ؟ وما نوعها ؟

وكانت أحلام اليقظة التى اعترف بها طلبة الجامعة متنوعة : منها تخيل

---

(١) Oliver Wheeler : Creative Education & the Future.

الطالب نفسه مبرزاً فى الألعاب الرياضية ، أو بطلا فى الحرب ، أو منقذاً لحياة فى خطر ، أو متفوقاً فى الامتحان . وغير ذلك من المواقف التى يتميز بها الشباب والتى يتجرد فيها من عوائق الواقع . وأحلام اليقظة لها فوائد من حيث التنفيس عن صاحبها ، ومن حيث إنها ميدان للتجربة والإنتاج الخيالى الذى قد يقود إلى الحقيقة يوماً ما . ومن حيث إن صاحبها لا يقاسى آلام الخيبة الواقعية إذا جرب هذه الأحلام عملياً ، غير أن لها مضار إذا أسرف فيها الناشئ وشغلته عن الحقيقة . ولذلك ننصح المشرفين على التربية أن يشركوه بقدر ما يمكن فى أنواع النشاط الذى يناسبه وفى الجمعيات ، وأن يكلوا إليه القيام ببعض الأعمال التى يختبر فيها الحياة ، ويتعلم بها عن طريق العمل والمزاولة الشخصية .

وكل هذه الانفعالات الوجدانية هى التى تظهر فى شدة حساسية المراهق وكثرة تذمره من الحياة وثورته على المجتمع .

ومن مظاهر هذه الحساسية الشديدة وشدة الانفعال — قوة المشاركة الوجدانية عند الناشئ ، فهو يتألم لآلام من يحيطون به ، ويندفع يبكى لما يصيبهم ويواسيهم ، ويساعد الفقراء ويندفع مع الجمهور الثائر فى المظاهرات من غير أن يكون واضح الرأى . وهو يفرح أيضاً لفرح من حوله ومن يتصلون به . وهذا الميل إلى المشاركة الوجدانية يمكن استغلاله فى تكوين الخلق الكريم ، وفى تكوين عادة العطف على الفقراء والعجزة ، وفى ضم الشاب إلى الجمعيات الخيرية .

النمو الاجتماعى والخلقى : أشرنا إلى أنه لا يمكن فصل النمو الوجدانى عن باقى نواحى النمو ، إذ أن النمو العقلى مثلا أو الوجدانى تصحبه عادة مظاهر اجتماعية وخلقية : فيقظة الغريزة الجنسية مثلا لها مظاهرها فى علاقة الفرد الاجتماعية بأفراد جنسه وأفراد الجنس الآخر ، ولها أثرها فى سلوكه الخلقى . وقلق الشاب وحدة انفعالاته لهما أثر فى صلاته بغيره من الكبار ، وغيرته منهم أو تحديه لهم ، وميله الفلسفى الدينى له أثره فى عزلته عن الناس مثلا للتفكير والتأمل ، أو لاعتناق مذهب دينى خاص كالتصوف أو الجحود والخروج عن قواعد الأديان المعروفة . فالصلة إذاً قوية بين النمو العقلى والوجدانى والخلقى والاجتماعى .

وقد ذكرنا أن الطفل فى أواخر المرحلة السابقة قد أخذ ينضم لبعض زملائه ويعمل معهم ويخضع لسلطتهم . وهذا الشعور بعلاقته الاجتماعية بزملاء من سنه وعقليته — يقوى فى مرحلة المراهقة والبلوغ لدرجة أن الشاب يشعر برغبة فى الاستقلال فى تفكيره وأعماله عن الأسرة ومن كان يخضع لهم من الكبار . فهو يكون رأيه الخاص ، وينتمى إلى من هم فى سنه من الشبان ، وينظم معهم مشروعاته ، ويجد فى أفكارهم ومناقشاتهم ما يجذبه إليهم أكثر مما يجذبه إلى أسرته وإلى الكبار كالمدرسين والآباء . وهذا يفسر لنا مظهر التحول الذى نجده من المراهقين تجاه الكبار ، ورغبتهم فى الاعتماد على أنفسهم ، واتخاذ مثل خاص بهم ، وتكوين أبطال يتخيلون فيهم كل صفات الكمال . ومن هذا سميت المرحلة مرحلة عبادة الأبطال Hero Worship ولهذه الظاهرة أثر فى تكوين الخلق ، إذ أن سلوك الفرد يتكيف فى هذه المرحلة بما يناسب صفات البطل الذى نصبه لنفسه نموذجاً .

فمن الناشئين من يريد أن يكون سياسياً كمصطفى كامل ، ومنهم من يريد أن يكون مصلحاً اجتماعياً كمحمد عبده ، ومنهم من يريد أن يكون زاهداً كغاندى ، ومنهم من يتخذ بطله من أفراد الناس من العاديين المحيطين به كأستاذه أو عمه . إلخ .

ومن مظاهر السلوك الاجتماعى فى هذه المرحلة قلة الأنانية وتفهم الشاب حقوق الجماعة التى يعيش فيها ، ورغبته فى تلبية الواجب ، حتى لو أدى ذلك إلى التضحية ، غير أنه قد يسرف فى هذا الشعور بالواجب إلى درجة الهوس والطيش . والواجب على الآباء والمربين أن ينظروا إلى الناشئين فى هذه المرحلة نظرة عطف وتفهم واستعداد لمساعدتهم ، نظرة خالية من السلطة المستبدة ، وأن يفسحوا صدورهم لمناقشة الشبان مناقشة منطقية فيها توجيه وإرشاد . وألا يعاملوهم معاملة الأطفال .

ويمكن تلخيص ما يجب على المدرسين والآباء نحو الشباب فى هذه المرحلة ، مرحلة التعليم الثانوى فيما يأتى :

ا — من الناحية الجسمية :

١ — العناية بغذاء الناشئ من حيث الكمية والنوع ، لأنه سريع النمو ويحتاج لغذاء كاف .

٢ — العناية بصحته وعدم تكليفه من الأعمال ما يرهقه .
٣ — العناية بإعطائه قدراً مناسباً من الراحة والهواء الطلق والألعاب المعتدلة.
٤ — التنبيه إلى الطريقة الصحية فى المشى والجلوس والوقوف أثناء العمل والراحة .

ب — من الناحية العقلية :

١ — اختيار المواد التى تناسب نموهم العقلى واستخدام الأسلوب العلمى فى تفهمها ، وكذلك العناية باختيار الموضوعات الأدبية والفلسفية التى تكون ذات قيمة فى حياتهم وتكوينهم وتربى ذوقهم الجمالى .
٢ — اختيار الكتب التى تحمل إليهم جميل الأفكار ونبيل الفعال ككتب الرحالة والأبطال والمصلحين .
٣ — الاعتماد فى دراستهم على تفهم الحقائق تفهماً موضوعياً ، والنظرة إلى المعارف نظرة منطقية مجردة من الهوى .
٤ — إتاحة الفرصة لإظهار الميول والاستعدادات تمهيداً للاختبار والتوجيه المهنى .

حـ — من الناحية الاجتماعية والوجدانية :

١ — الإقلال من الأوامر والضغط وجعل موقف الكبير موقف الصديق المرشد.
٢ — تكوين الجمعيات والأندية التى تتيح للمراهق فرصة إشباع غريزة الاجتماع وتشعره بالمسئولية ، وتنظم سلوكه الاجتماعى .
٣ — إدخال نظم الحكم الذاتى فى المدرسة بإشراك التلاميذ فى الإشراف على بعض النواحى كالمكتبة والمسرح وتنظيم الحفلات ، وكذلك تكوين مجالس لمعاقبة المذنبين ، ووضع لوائح يسير عليها المجتمع المدرسى فى بعض الشئون .
٤ — تقدير جهود الناشئ ، وتشجيعه ، وإشعاره بالاحترام ، ودعوته للنقد ، ومناقشة نقده ، وتعويده سماع نقد غيره له .
٥ — تربية الميل الجنسى تربية علمية وإبدال الغريزة الجنسية ، وتوجيه الشاب إلى أنواع النشاط الرياضى وغيره .
٦ — إحاطة الناشئ بالمثل العليا الجمالية النبيلة حتى يألفها وتربى عنده ذوق الجمال .

نماذج لأسئلة وتوجيهات

١ ــ ما المراد بالطفولة عند الإنسان ؟ ولم كانت مرحلة طفولته أطول من مرحلة الطفولة لأى حيوان آخر ؟

٢ ــ « ويظل الولد طفلا إلى أن يستطيع الاعتماد على نفسه » اشرح هذه القضية وبين أثرها فى طول مدة الطفولة وقصرها فى المجتمعات المتحضرة والمتأخرة .

٣ ــ اذكر أهم مراحل النمو التى يكون فيها الطفل عرضة للأمراض المعدية . علل لذلك ، وبين واجب الوالدين نحوه فى هذه المرحلة .

٤ ــ ما أهم الخصائص العقلية للطفولة المبكرة ، وإلى أى حد يمكن الاستفادة منها وتوجيهها لصالح الطفل .

٥ ــ يرى علماء النفس والتربية « أن مرحلة الطفولة المبكرة تطبع حياة الإنسان وسلوكه طول عمره بطابعها الخاص ، وأن أثرها يلازمه فى جميع السنوات التالية » . اشرح هذا ، وبين أسبابه .

٦ ــ أطفال الرياض يعانون صعوبات كبيرة فى تكييف أنفسهم لبيئة المدرسة الابتدائية عند ما ينقلون إليها . ما أنواع هذه الصعوبات ، وما أسبابها ؟ اذكر الوسائل التى تراها كفيلة بإزالتها .

٧ ــ ادرس فصلين من فصول السنة الأولى بالمدرسة الابتدائية . أثناء مدة تمرينك بها ، وبين الفروق بين تلاميذ كل من الفصلين ، ومزايا كل مجموعة ومثالبها . وعلل لذلك .

٨ ــ إنه من الصعب فصل النمو العقلى عن النمو الاجتماعى والوجدانى عند الأطفال اشرح هذا ، واذكر أمثلة من مرحلة الطفولة المتأخرة .

٩ ــ « ليست مراحل النمو طفرات متميزة فى حياة الطفل ، وإنما هى تدرج قد يكون سريعاً وقد يكون بطيئاً » اشرح هذه العبارة ، وبين وجه الصواب فيها.

١٠ ــ تسمى مرحلة الطفولة المتأخرة « مرحلة النشاط والحركة » ما سبب هذه التسمية ، وما مظاهرها ؟

١١ — ما أهم الغرائز التى تبدو عند الطفل فى مرحلة الطفولة المتأخرة ، وكيف يمكن توجيهها فى المدرسة والمنزل ؟

١٢ — « يمكن للمدرسة أن تستفيد من ميل الطفل إلى اللعب والعمل الجمعى » اشرح هذا الميل ومظاهره ، واذكر أوجه النشاط التى يمكن الاستفادة منها .

١٣ — تعرف مرحلة المراهقة والبلوغ بأنها مرحلة « الزوابع والأعاصير » لم تعرف بهذا ؟ وما واجب المدرسة والآباء نحو الشاب فى هذه المدحلة ؟

١٤ — متى يتم النمو العقلى للشاب ، ومتى تتميز ميوله الخاصة ؟ اذكر بعض هذه الميول ، وواجب المدرسة نحو توجيهها ؟

١٥ — لم تظهر الغريزة الجنسية فى مرحلة متأخرة من حياة الطفل ؟ وما خصائصها ؟ وكيف يمكن إعلاؤها أو إبدالها وتنظيم نشاطها ؟

١٦ — يغرم الشبان فى مرحلة الشباب بقراءة كل ما تقع عليه أيديهم . اذكر مزايا هذا الإغرام وأخطاره ، وكيف يمكن تنظيمه ؟

١٧ — « إذا كبر ابنك فآخه » اشرح هذه الحكمة شرحاً سيكولوجيا تربويا . وبين ما يجب على الآباء نحو أولادهم عند ما يكبرون .

١٨ — تلاميذ المدارس الثانوية صعاب المراس ، متمردون فى السنوات الأخيرة . ادرس حالهم فى بعض المدارس الثانوية ، وابحث عن أسبابها ، وبين ما يرجع منها إلى نموهم فى مرحلة المراهقة والبلوغ ، وما يرجع منها إلى البيئة. وحاول أن تقترح بعض الوسائل لإصلاحهم .

مراجع الباب الرابع

1. Infant & Nursery School Report by Board of Education.
2. The Primary School, Report by Board of Education.
3. Education of the Adolescent., Report by Board of Education.
4. Social Psychology, W. McDougall.
5. Ground Work of Educational Psychology by Ross.
6. Psychology & Practical Life, by Collins and Drever.
7. Experimental Education, by Rusk.
8. The Backward Child, by C. Burt.
9. Instinct and the Unconscious, by W.H. Rivers.
10. Creative Education & the Future, by O. Wheeler.
11. Youth, by Wheeler.
12. Intellectual Growth in Young Children, by S. Isaacs.
13. Fundamentals of Child Study, by Kirkpatrick.
14. Education, Its Date & First Principles, by P. Nunn.
15. School & Society, by John Dewey.
16. Psychology of the adolescent, by Hollingworth.

١٧ — أسس الصحة النفسية للدكتور عبد العزيز القوصى .

١٨ — الطفل من المهد إلى الرشد لمحمد خلف الله .

١٩ — الحضانة لسوزان إيزاكس ترجمة سمية فهمى .

٢٠ — الطفل فى المدرسة الابتدائية لسوزان إيزاكس ، ترجمة محمد مختار متولى .

٢١ — التربية وطرق التدريس للأستاذ مرسى قنديل .

٢٢ — التربية ، مادتها ، ومبادئها الأولية ترجمة صالح عبد العزيز .